من مظاهر التكرار

في القرآن الكريم

الدكتور محمد محمود زوين

تقديم:

لعل من حسن الطالع بعد أن توفقت في بحثي السابق (الدعاء في القرآن الكريم)[1]، أن أوفق مرة أخرى فأنهل من فيض كتاب الله العزيز، وتخط الأنامل شيئاً عن موضوع جدير بالدراسة والتتبع، وهو ظاهرة التكرار في القرآن الكريم.

ولما كان التكرار واسعاً ومتعدداً في كتاب الله المجيد، ارتأيت أن ألتمس بعضاً من مظاهره في هذه الوريقات، والتي من المفيد أن نذكر فيها، أن موضوع التكرار قد تناوله البلاغيون القدماء[2] وأشادوا بمكانته من البلاغة[3]، ونبهوا على مواضعه في كلام العرب من جهة، ومجيئه في القرآن الكريم من جهة أخرى، ولكن اللافت للنظر أن دراسة التكرار في القرآن المجيد لم تحظ بالعناية التي تتناسب مع وجودها في الكتاب العزيز. ولعلك لا تجد أكثر من دراستين اختصتا بهذه الظاهرة الكريمة وهما:

الدراسة الأولى: بعنوان «أسرار التكرار في القرآن» لتاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني، من أعلام القرن الخامس الهجري، حقق الكتاب عبد القادر أحمد عطا.

والكتاب بصورة عامة جيد في محتواه، دقيق في تلمس تكرار الآيات، على اختلاف مواقعها في السور، وقد اتبع المؤلف منهجاً واضحاً، إذ اعتمد على ترتيب

---

(١) سيصدر قريباً على مطابع بيروت، إن شاء الله تعالى.

(٢) ظ: الصناعتين: العسكري، ١٩٤، العمدة: ابن رشيق القيرواني، ٢/ ٧٣، المثل السائر: ابن الأثير، ٣/ ٧.

(٣) يقول ابن الأثير: «واعلم أن هذا النوع من مقاتل علم البيان، وهو دقيق المأخذ»، المثل السائر: ٣/ ٧.

السور كما هي في المصحف، فيورد السورة وآية منها ويقول: إنها أعيدت وكررت في سورة كذا، ويعطي الآية المكررة، وهكذا تناول الغالب من سور القرآن على هذا النحو، وعلى سعة ما تناول الكتاب من آيات متكررة ظلت هذه الظاهرة أكبر من هذا الجهد الكريم الذي أهداه لنا تراثنا الخالد.

الدراسة الثانية: قام بها د. محمود السيد شيخون، تقترب في عنوانها من الدراسة الأولى إذ أسماها بـ (أسرار التكرار في لغة القرآن». وهذه الدراسة ليست كما في عنوانها، فقد تحدث المؤلف في أكثر من نصف الكتاب عن التكرار عند العرب، في حين خص عنوانه بالقرآن.

وعلى أية حال، فقد قامت هذه الوريقات ببيان بعض طرائق أو مظاهر التكرار في القرآن رغبة منها في التماس أسبابه، ولطائفه. وقد واجهت بعض الصعوبات الفنية في تبويب هذه المظاهر، إذ أن الآية الواحدة تحمل عدة طرائق من التكرار، وليس بالإمكان إعادة الآية ودراستها مرة بعد أخرى تحت مظاهر مختلفة، وعليه فقد سلكت منهجاً يقوم على دراسة فنية التكرار في الآية، ثم توجيه النظر إلى مزيتها في التكرار، وما حملته من سمات تعبيرية من غير أن أقسم هذه الدراسة على فصول أو مباحث، وإنما جعلتها قسماً واحداً، وقدمت لها بتمهيد بينت فيه التكرار لغة واصطلاحاً، فضلاً عن دلالة مادة «كـرر» واستعمالها لها في القرآن الكريم.

وقد أفادت هذه الدراسة من مصادر مختلفة منها كتب اللغة والتفسير، وعلوم القرآن.

وبعد... فإن غاية هذه الدراسة الإفادة من منبع السحر والبيان كتاب الله المجيد، وخدمة لغته الكريمة وهما غاية لكل باحث، فإن وفقت فللّه الحمد والمنة أولاً وآخراً وإلا فحسبي أنني حاولت ذلك.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

التكرار.. لغة واصطلاحاً:

التكرار: مصدر للفعل الثلاثي الصحيح المضعف «كَرَّرَ»، وكَرّ على الشيء يكرُّ كَراً، وكَرُواً، وتكراراً «بالفتح» أي رجع عليه مرة بعد أخرى[١].

ويروى أن اعرابياً أُلح عليه بالسؤال فقال: «لا تُكَرْ كِروني، أراد لا تردّدوا عليّ السؤال فأغلط»[٢].

---

(١) ظ: لسان العرب: مادة «كَرَرَ».

(٢) لسان العرب: مادة «كَرَرَ».

ويبدو أن التكرار «بكسر التاء» اسم للكرّ، وتَكرار «بالفتح» مصدر للكرّ. جاء في تاج العروس: «قال أبو سعيد: الضرير، قلت لأبي عمرو: ما بين تَفْعَال وتِفْعَال؟ فقال: تِفْعَال (بالكسر) اسم، تَفْعَال (بالفتح) مصدر»(١).

ومن المجاز قولنا: «ناقة مُكَرّةٌ: تحلب في اليوم مرتين»(٢). وكأنما هي تعاود إرجاع الحليب مرة بعد أخرى.

نخلص من ذلك أن دلالة «كَرَّرَ» تدل على ترديد الشيء وإعادته مرة بعد أخرى.

والتكرار في الاصطلاح: «دلالة اللفظ على المعنى مردداً»(٣) والمقصود بذلك إعادة الكلام مُجَدّداً بصورة تطابق، أو تكاد تطابق الهيئة الأولى التي ذكر فيها، وبأسلوب آخر.

تمهيد:

إن التكرار تجديد لدلالات الألفاظ بطرائق مختلفة وسياقها في الكلام، ويتضح ذلك من خلال تقسيم ابن الأثير للتكرار على قسمين:

الأول: تكرار باللفظ والمعنى ومثاله قولك للقادم: «أسرع، أسرع».

الثاني: تكرار بالمعنى دون اللفظ ومثاله قولك لأحد ما: «أطعني ولا تعصني»(٤).

فالمطابقة حصلت في المثال الأول، وكادت أن تكون في المثال الثاني، وكلا المثالين يعطي في لفظه الثاني «أسرع، ولا تعصني» توكيداً للفظ الأول وهذا معنى التجديد للكلام.

وعلى أية حال فإذا جاز للبحث أن يعرف التكرار فهو تجديد لدلالات الألفاظ، بطرائق متعددة تتبع تناسبها مع سياقاتها المتنوعة التي وردت فيها.

وأهم ما يلحظ على ظاهرة التكرار، اقترابها من مفهوم التوكيد اللفظي، وهذا التقارب لا يلغي الفارق بينهما، فالتكرار أوسع دلالة من التوكيد؛ بل نستطيع القول: إن التوكيد دلالة من دلالات ظاهرة التكرار، فضلاً عن ذلك فإن التوكيد مرتبط بالكلام القريب منه، المتصل به، أما التكرار فلا يشترط فيه الاتصال بينه وبين الكلام السابق عليه، إذ يصح أن يأتي منفصلاً عن السياق الأول الذي هو تكرار له، هذا من جهة،

---

(١) تاج العروس: مادة «كَرَرَ».

(٢) أساس البلاغة: مادة «كَرَرَ».

(٣) المثل السائر: ٣/ ٧.

(٤) ظ: المثل السائر: ٣/ ٧.

ومن جهة أخرى إن التوكيد اللفظي حينما يرد أكثر من ثلاث مرات يخرج إلى التكرار، ولا يوصف حينها بأنه توكيد، وإنما يقال تكرار أفاد معنى التوكيد، والفرق واضح بين المعنيين.

يقول الزبيدي: «وقد قرر الفرق بينهما [بين التوكيد والتكرار] جماعة من علماء البلاغة ومما فرقوا بينها: أن التأكيد شرطه الاتصال، وأن لا يزاد على ثلاثة، والتكرار يخالفه في الأمرين، ومن ثم بنوا على أن قوله تعالى: ﴿فبأي ألاءِ ربكما تكذبان﴾ [سورة الرحمن]، تكرار لا تأكيد[١].

وبذلك يتبين أن التأكيد أعم من التكرار، وأبلغ منه؛ لأن التأكيد يقرر المعنى الأول، بينما التكرار يؤسس معنىً فيه من القوة في الدلالة ما ليس في التوكيد[٢].

ولعل من المفيد الإشارة إلى أن مادة «كَرَرَ»، جاءت في القرآن الكريم في مواضع ستة[٣] منها ثلاثة مواضع على لسان الكفار وأهل النار في الآخرة يتمنون الرجوع فيها إلى الدنيا. قال تعالى: ﴿وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرءوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسراتٍ عليهم وما هم بخارجين من النار﴾ [البقرة: ١٦٧][٤]. يقول الطبرسي في معنى الكرة «أي العودة إلى دار الدنيا، وحال التكليف»[٥].

والآية الرابعة جاءت في سياق خطاب لبني اسرائيل، وبيان أمر فسادهم في الأرض مرتين، وكيف تُعاد لهم القوة والكثرة في المرة الثانية، قال تعالى: ﴿ثم رددنا لكم الكرّة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا﴾ [الإسراء: ٦].

والآية الخامسة جاءت على لسان من خسر دنياه ورأى في رجعته وعودته إلى الآخرة عودة خاسرة أيضاً. قال تعالى: ﴿يقولون أئنا لمردودون في الحافرة * أئذا كنا عظاماً نخرة * قالوا تلك إذا كرّةٌ خاسرة﴾ [النازعات/ ١٠، ١١، ١٢].

والموضع الأخير الذي وردت فيه مادة «كَرَرَ» في القرآن الكريم هو سورة الملك في سياق بيان عظمته تعالى في خلق السموات، وتحدي خلقه في أن يجدوا اختلافاً أو تفاوتاً في سمواته على تعدد طبقاتها. قال تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك

(١) تاج العروس: مادة «كَرَرَ».
(٢) ظ: البرهان في علوم القرآن: ٣/ ١١.
(٣) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم: مادة «كَرَرَ».
(٤) ظ: الآيتين: الشعراء/ ١٠٢، الزمر/ ٥٨.
(٥) مجمع البيان: ١/ ٢٥١، ظ: تفسير أبي السعود: ١/ ١٨٧، ٦/ ٢٥٣.

البصر خاسئاً وهو حسير﴾ [الملك: ٤].

قوله تعالى: ﴿كرتين﴾ أي رجعتين أخريين في ارتياد الخلل، والمراد بالتثنية، التكرير والتكثير، كما في لبيك وسعديك، أي رجعة بعد رجعة وإن كثرت[١].

نخلص من خلال ما عرضناه لآيات مادة «كَرَرَ» في القرآن الكريم إلى أنها اتفقت في إعطاء معنى واحد للتكرار وهو الرجوع أو الإعادة، وهو ما تقرر في معنى التكرار في اللغة والاصطلاح. وسوف نعرض لبعض مظاهر التكرار التي نتبين فيها أبعاداً دلالية للآيات المكررة تنبع من سياقها الواردة فيها.

من مظاهر التكرار في القرآن الكريم

أول ما سنعرض له من ظواهر التكرار في القرآن، التكرار القائم على أساس الاختلاف في الألفاظ بين الآيات المتشابهة وهو ما نجده في قوله تعالى: ﴿**وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاءٌ من ربكم عظيم**﴾ [البقرة: ٤٩].

وأعيدت الآية مرة أخرى في الأعراف باختلاف بسيط حيث أبدل قوله ﴿يذبحون﴾ بـ ﴿يقتلون﴾. قال تعالى: ﴿**وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾ [الأعراف: ١٤١].

وكررت الآية نفسها في سورة إبراهيم كما جاءت في البقرة؛ إلا أنها عطفت لفظ يذبحون على ما سبقها من الكلام. قال تعالى: ﴿**وإذ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم إذ أنجاكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم**﴾ [إبراهيم: ٦].

يظهر من خلال ذلك أن الآيات متشابهة والاختلاف بينهما يكمن في ما يلي:

أ ـ إن آية البقرة جاء بلفظة ﴿يذبحون﴾.

ب ـ آية الأعراف استعملت ﴿يقتلون﴾.

جـ ـ آية إبراهيم استعملت ﴿ويذبحون﴾.

وخير ما يدلنا على لطائف التكرار في الآيات هو معرفة سياقها في كل من السور الثلاث، وعليه فآيتا البقرة والأعراف تكاد تتقاربان في ترك العطف مع ﴿يذبحون﴾، ﴿يقتلون﴾ ولكنهما يختلفان مع آية إبراهيم في استعمال العطف ﴿ويذبحون﴾، وسياق

(١) تفسير أبي السعود: ٩/ ٤، ظ: الكشاف ٤/ ٥٧٦، البرهان: ٣/ ٨.

آيتي البقرة والأعراف يظهر أن الكلام فيهما منسوب لله تعالى في حين أن آية إبراهيم جاء الكلام فيها على لسان موسى «ع» ومن هنا يتضح الاختلاف بين السياقين. جاء في أسرار التكرار في القرآن. ما في هذه السورة [يعني البقرة والأعراف] من كلام الله تعالى، فلم يرد تعداد المحن عليهم، والذي في إبراهيم من كلام موسى «ع»، فعدد المحن عليهم، وكان مأموراً بذلك في قوله: ﴿... **وذكرهم بأيام الله**...﴾ [إبراهيم: ٥][١].

وتعداد المحن في هذه الآية تقوم به «الواو العاطفة» إذ أن ترك العطف في كل من البقرة والأعراف جعل من جملة ﴿**يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم**﴾ أو ﴿**يقتلون أبناءكم**﴾ تفسيراً وبياناً لقوله تعالى: ﴿**يسومونكم سوء العذاب**﴾[٢].

في حين أن إضافة الواو في إبراهيم أعطت للجملة الثانية دلالة أخرى، وهي أن عذاب بني إسرائيل يكون بالتذبيح وبغيره من أنواع العذاب الأخرى، لذلك نص الطوسي رحمه الله نقلاً عن الفراء: «إن معنى الواو أنه كان يمسهم من العذاب غير التذبيح، كأنه قال: يعذبونكم بغير الذبح»[٣] فضلاً عن الذبح.

هذا من جهة الفرق بين العطف في آية إبراهيم وبين تركه في البقرة والأعراف. ومن جهة أخرى ثمة فرق بين آيتي البقرة والأعراف في استعمال ﴿يذبحون﴾ مرة، و﴿يقتلون﴾ مرة أخرى، على الرغم من دلالة كل منهما على المبالغة، وهذا الفرق يتضح من أصلهما اللغوي، فالذبح «قطع الحلقوم من باطن النَّصِيل»، وهو موضع الذبح من الحلْقِ»[٤].

في حين أن القتل «إزالة الروح عن الجسد كالموت، ولكن إذا اعتبر بفعل المتولي لذلك يقال قَتَلٌ، وإذا اعتبر بفوت الحياة يقال موت ﴿... **أفإن مات أو قتل**...﴾ [آل عمران: ١٤٤][٥].

ومعنى ذلك أن القتل أوسع دلالة من الذبح؛ لأن الذبح طريقة من طرائق القتل، ومن أطرف من استدل على ذلك الراغب الأصفهاني (٥٠٢هـ) في تعليقه على قوله

---

(١) أسرار التكرار في القرآن: ٢٧.

(٢) ظ: مجمع البيان ١/ ١٠٥، الكشاف: ٢/ ٥٤٠، الجامع لأحكام القرآن: ١/ ٣٨٤، تفسير أبي السعود: ١/ ١٠٠، ٣/ ٢٦٨.

(٣) تفسير التبيان: ٦/ ٢٧٥، ظ: مجمع البيان ١/ ٣٠٤، مفاتيح الغيب ١٩/ ٨٥.

(٤) لسان العرب: مادة «ذَبَحَ».

(٥) معجم مفردات غريب القرآن، مادة «قتل».

تعالى: ﴿ولا تقتلوا الصيد وأنتم حُرمٌ ومن قتله منكم متعمداً فجزاءٌ مثل ما قتل من النعم﴾ [المائدة: ٩٥].

يقول: «إنه تعالى ذكر لفظ القتل دون الذبح والزكاة، إذ كان القتل أعم هذه الألفاظ، تنبيهاً أن تفويت روحه على جميع الوجوه محظور»[١].

إذاً مجيء لفظة ﴿يقتلون﴾ في الأعراف يعطي جانباً جديداً في الدلالة حول قصة تعذيب بني إسرائيل، ولعل المعنى يكون ـ والله أعلم ـ أنه تعالى أنعم عليهم بأن أنجاهم من تعذيب آل فرعون لهم بالذبح مرة وبالتقتيل الذي يشمل طرائق من العذاب المؤدي إلى الموت مرة أخرى.

وإذا ما قرنّا دلالة الاختلاف بين ﴿يذبحون﴾ و﴿يقتلون﴾ إلى دلالة العطف في ﴿ويذبحون﴾ لوجدناهما متعاضدتين ومنتظمتين معاً كل واحدة منهما مصداق للأخرى، مما يوحي بإعجاز النظم في القرآن العظيم ـ والله أعلم بالصواب ـ.

ومن التكرار قوله تعالى: ﴿وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً وادخلوا الباب سجداً وقولوا حِطةٌ نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين﴾ [البقرة: ٥٨].

وكررت الآية بطريقة تختلف عن سابقها. قال تعالى: ﴿وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حِطةٌ وادخلوا الباب سجداً نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين﴾ [الأعراف: ١٦١].

وقبل أن نبين الفرق بين الآيتين نعرض لسياقهما ونقول: إن الآية الأولى جاءت في سياق تعداد نِعم الله تعالى على بني إسرائيل، في حين أن آية الأعراف جاءت في سياقات تذكير بني إسرائيل بالنِعم كذلك، ولكن مع هذا نجد فيها تقريعهم وتأنيبهم لما يصدر عنهم بعد كل نعمة[٢]، وإصرارهم على معاودة المعاصي لعدم اتعاظهم، فبعد أن أنقذهم تعالى من فرعون وجنوده، وورثهم مشارق الأرض ومغاربها، طلبوا من موسى «ع»، أن يجعل لهم آلهة صنماً كما عند غيرهم من الوثنيين، وهكذا نجد في سياق الآيات[٣] في الأعراف حوادث جديدة عن ضلال بني إسرائيل لم تذكرها آية البقرة، وعليه فكان تأنيبهم وتوبيخهم فيها ظاهراً والله أعلم.

وبناءً على الفرق الظاهر بين السياقين نستطيع أن نحدد بعضاً من معالم الاختلاف

---

(١) معجم مفردات غريب القرآن، مادة «قتل».

(٢) ظ: التعبير القرآني: ٢٧٧.

(٣) ظ: الآيات التالية في سورة الأعراف: ١٣٦ ـ ١٦٨.

بين الآيتين.

(أ) ـ بدأت أية سورة البقرة بقوله تعالى: ﴿وإذ قلنا﴾ ناسباً القول تعالى لنفسه، في حين بنى الفعل للمجهول في آية الأعراف ﴿وإذ قيل لهم﴾. ولعل ذلك يرجع إلى أسلوب القرآن العظيم فهو «يسند الفعل إلى الله سبحانه في مقام التشريف والتكريم، ومقام الخير العام، والتفضل، بخلاف الشرّ والسوء، فإنه لا يذكر فيه نفسه تنزيهاً له عن فعل الشر، وإرادة السوء»[١]. وعليه فالآية في الأعراف في سياق التقريع والتأنيب لا يناسب أن يبدأ القول فيه منسوباً إلى الله تعالى يقول السامرائي: «فبنى القول للمجهول في الأعراف ولم يظهر الرب تعالى نفسه لأنهم هنا لا يستحقون هذا التشريف»[٢]. وبهذا يظهر أن كل هيئة للتعبير ترجع إلى تناسبها الدقيق مع سياقها.

(ب) ـ قال في البقرة: ﴿**ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً**﴾ وفي الأعراف أبدل ﴿ادخلوا﴾ بقوله ﴿اسكنوا﴾ ثم عطف الأكل فيها على السكن بالواو ﴿وكلوا﴾ فضلاً عن ذلك فقد ترك قوله ﴿رغداً﴾ في الأعراف، وأثبته في البقرة. قال في الأعراف: ﴿**وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم**﴾.

أما علة العطف ﴿فكلوا﴾ بالفاء فراجع لتعلق الأكل في الآية على الدخول، وتعلق أحدهما بالآخر تعلق الشرط بالجزاء، أما في الأعراف فلم يتعلق الأكل بالسكن تعلق الشرط بالجزاء فعطف بينهما بالواو. يقول الرازي: «كل فعل عطف عليه شيء، وكان الشيء بمنزلة الشرط، وذلك الشيء بمنزلة الجزاء، عطف الثاني على الأول بالفاء دون الواو كقوله تعالى: ﴿**وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغداً**﴾ فعطف ﴿كلوا﴾ على ﴿ادخلوا﴾ بالفاء، لما كان وجود الأكل منهامتعلقاً بدخولها فكأنه قال: إن دخلتموها أكلتم منها، فالدخول موصل إلى الأكل، والأكل متعلق وجوده بوجوده، يبين ذلك قوله تعالى في الأعراف ﴿**وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم**﴾ فعطف ﴿كلوا﴾ على قوله ﴿اسكنوا﴾ بالواو دون الفاء لأن اسكنوا من السكن وهي المقام مع اللبث، والأكل لا يختص وجوده بوجوده»[٣].

فضلاً عن ذلك إن العطف بالفاء يفيد التعقيب، ولما كان الدخول حالة منتهية تنقضي بسرعة فعقب عليها الأكل (بالفاء) لتبعيته. أما السكون فحالة ممتدة مستمرة فيكون الأكل معها لا عقبها حالاً فناسب عطف الأكل (بالواو) على

(١) التعبير القرآني: ٢٧٨.
(٢) التعبير القرآني: ٢٨٢.
(٣) مفاتيح الغيب: ٣/ ٤.

السكون[١].

وبمعنى آخر أن السياق «عطف ﴿كلوا﴾ على ﴿اسكنوا﴾ لمقارنتهما زماناً، بخلاف الدخول فإنه مقدم على الأكل ولذلك قيل هناك فكلوا»[٢]. إذاً فالتزامن بين السكن والأكل يوجب العطف بالواو، بينما التعاقب في الزمن بين الدخول والأكل ناسبه العطف (بالفاء) ـ والله اعلم بالصواب ـ.

هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنه تعالى صرح بقوله ﴿رغداً﴾ في البقرة لمناسبتها تعداد النعم على بني إسرائيل، بينما ترك إثباتها في الأعراف لملائمة ذلك حال التوبيخ، والتقريع لهم، فكان الإثبات والحذف في الكلمات يتبع دلالات السياق ومعانيه[٣].

(جـ) ـ قال في البقرة: ﴿وادخلوا الباب سجداً وقولوا حِطة﴾ في حين أخر السجود وقدم القول في الأعراف ﴿وقولوا حِطةٌ وادخلوا الباب سجداً﴾.

ومن الملفت للنظر أن بعض المفسرين أهمل دلالة التقديم والتأخير في الآيتين[٤] لعدم تناقضهما وإخلالهما بالسياق، ولعل ذلك يكون مقبولاً لو أن السياق لم يفدنا في شيء ندمجه، وعليه فربما تقديم السجود في البقرة، يتناسب مع لفظة ﴿ادخلوا﴾ «فبين كيفية الدخول»[٥] بحال السجود، بينما لم يناسب ذلك مع قوله ﴿اسكنوا﴾ والله أعلم. وقد يكون اختلاف السياق في الآية الأولى عنها في الأعراف أدى إلى ذلك. يقول: د. فاضل السامرائي: «وقدم السجود في سورة البقرة على القول لسببين والله أعلم: الأول، لأن السجود أشرف من القول لأنه أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فناسب مقام التكريم. والثاني، لأن السياق يقتضي ذلك فقد جاءت هذه القصة عقب الأمر بالصلاة. قال تعالى: ﴿واقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ [البقرة: ٤٣]. فناسب ههنا تقديم السجود لاتصاله بالصلاة والركوع، وكلا الأمرين مرفوع في سورة الأعراف فأخر السجود»[٦].

نخلص من ذلك أن دلالة التقديم والتأخير تصدر عن ملائمة دلالات الآيات

---

(١) ظ: أسرار التكرار في القرآن: ٢٨، مفاتيح الغيب: ١٥/ ٣٥.
(٢) تفسير أبي السعود: ٣/ ٢٨٣.
(٣) ظ: التعبير القرآني/ ٢٨٣.
(٤) ظ: الكشاف: ٢/ ١٧٠، مفاتيح الغيب: ١٥/ ٣٥، تفسير أبي السعود: ٣/ ٢٨٣.
(٥) أسرار التكرار في القرآن: ٢٨.
(٦) التعبير القرآني: ٢٨٣ ـ ٢٨٤.

بعضها مع بعض.

(د) ـ ومما يقرر أثر السياقات القرآنية وسطوتها على التراكيب الفنية فيها، قوله في البقرة ﴿**نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين**﴾ وفي الأعراف ﴿**نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين**﴾.

فعبر في الآية الأولى عن الخطايا المغفورة بجمع الكثرة؛ بينما في الأعراف بجمع القلة من جهة، ومن جهة أخرى أثبت (الواو) العاطفة الدالة على العناية والاهتمام والتنويع في التكريم، وزيادة المحسنين، بينما حذفها في الأعراف، وجعل الكلام مستأنفاً في الأعراف ﴿سنزيد المحسنين﴾ وما ذلك إلا لزيادة التأكيد على مقام التكريم في آية البقرة، والتوبيخ والتأنيب في الأعراف[1]. والله أعلم.

وعلى ذلك نلحظ معجبين التوافق الفني والسياقي بين آيات الكتاب العزيز الذي يشكل جانباً من جوانب إعجازه الخالد.

وقد ظهر من خلال سير الآية أن التكرار فيها متنوع؛ منه التكرار بلحاظ اختلاف الخطاب، ومنه التكرار القائم على اختلاف حروف العطف، فضلاً عن إثبات الكلمات مرة وتركها مرة أخرى، ومنه التكرار القائم على التقديم والتأخير، ومنه التكرار القائم على اختلاف بناء الألفاظ، وكل ذلك في آية واحدة.

ومن مظاهر التكرار في القرآن الكريم، التكرار القائم على اختلاف أدوات الأساليب العربية، كما نلحظ في قوله تعالى: ﴿**قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصةً من دون الناس فتمنَّوا الموت إن كنتم صادقين * ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين**﴾ [البقرة: ٩٤ ـ ٩٥].

وتكررت الآية مرة أخرى في سورة الجمعة، وهي قوله تعالى: ﴿**قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين**﴾ [الجمعة: ٦ ـ ٧].

والظاهر من أن اليهود في آية البقرة زعموا أن الدار الآخرة لهم، وفي آية الجمعة زعموا الولاية لهم من الله تعالى دون الناس، وزعمم الأول أقوى من الزعم الثاني، لأن الولاية لله توصل للدار الآخرة (الجنة) وفي مقابل تكذيبهم نفى القرآن الكريم الزعم الأول بـ (لن) لأنه أقوى، وأكد لنفي المستقبل من غيرها من الأدوات، في حين اكتفى بنفي الزعم الثاني بـ (لا) التي هي دون لن في قوة نفيها، فضلاً عن إفادتها العموم في

(١) ظ: أسرار التكرار في القرآن: ٢٨ ـ ٢٩، التعبير القرآني: ٢٨٤.

نفيها.

جاء في البحر المحيط: «وإنما قال هنا (ولن) وفي الجمعة ﴿ولا يتمنونه﴾؛ لأن دعواهم هنا أعظم من دعواهم هناك، لأن السعادة القصوى فوق مرتبة الولاية؛ لأن الثانية تراد لحصول الأولى، ولن أبلغ في النفي من (لا) فجعلها لنفي الأعظم»[١] فاستعمال أدوات الأساليب العربية يتبع سياقها، ولما كان المطلوب في الآية الأولى نفي زعمهم الكبير الذي لا يخفى فيه الضلال استعمل (لن) لقوتها في النفي، بينما كان النفي بـ (لا) في الآية الثانية مناسباً لزعمهم الآخر والله أعلم. وفي الآيتين لطيفة أخرى من لطائف التكرار وهي «لما كان الزمن في آية الجمعة عاماً مطلقاً، غير مقيد بزمن نفاه بـ (لا) التي آخرها حرف إطلاق وهو الألف، ولما كان الزمن في الآية الثانية للاستقبال وهو زمن مقيد نفاه بـ (لن) التي آخرها حرف مقيد وهو النون الساكنة، وهو تناظر فني جميل»[٢] دلَّ عليه سياقي الآيين الكريمتين.

من التكرار قوله تعالى في سورة الحج: ﴿**فكأين من قريةٍ أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئرٍ معطلةٍ وقصرٍ مشيدٍ**﴾ [الحج: ٤٥]. وجاءت الآية مرة أخرى بعد ثلاث آيات. قال عز وجل: ﴿**وكأين من قريةٍ أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليَّ المصير**﴾ [الحج: ٤٨].

فخص الآية الأولى بالهلاك والثانية بالإملاء في سورة واحدة وما ذلك إلا لاتصال الآيات بسياقها، فالآية الأولى جاءت «بذكر الإهلاك لاتصاله بقوله ﴿**فأمليت للكافرين ثم أخذتهم...**﴾ [الحج: ٤٤]. أي أهلكتهم، والثاني بالإملاء لأن قبله ﴿**ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده...**﴾ [الحج: ٤٧]. فحسن ذكر الإملاء»[٣] والخطاب في الآية الثانية وما قبلها موجه لقريش، وعليه جاء ذكر القرى التي أهلكت بعد الإمهال، وفي هذا تنبيه بأنه سوف يعذبون وإن استعجلوا بالعذاب من جهة وطال إمهالهم من جهة أخرى، فالعذاب عليهم واقع فلا يغترّوا بتأخيره عنهم[٤].

ونلحظ فرقاً آخر بين الآيتين وهو: أن الأولى جاء العطف فيها بـ (الفاء)؛ والثانية بـ (الواو)، وهذا قائم على أن الآية «الأولى وقعت بدلاً عن قوله ﴿**فكيف كان نكير**﴾ [الحج: ٤٤]. وأما الثانية فحكمها حكم ما تقدمها من الجملتين المعطوفتين بالواو

---

(١) البحر المحيط: ١/ ٣١١، ظ: أسرار التكرار في القرآن: ٣٢، الكشاف: ٤/ ٥٣١.

(٢) التعبير القرآني: ١٨٣.

(٣) أسرار التكرار في القرآن: ١٤٦.

(٤) ظ: البحر المحيط: ٦/ ٣٧٩.

كتابخانه تخصصي تاريخ اسلام و ايران ١٣٧٤

وأعني قوله: ﴿. . . **ولن يخلف الله وعده وإن يوماً عند ربك كألف سنةٍ مما تعدون**﴾ [الحج: ٤٧]»[١] فهنا طريقة أخرى من طرائق التكرار تختلف في التعبير لاختلاف سياقها المتقدم، والله أعلم.

ومن طرائق التكرار الأخرى قوله تعالى في آل عمران: ﴿**قال ربِ أنى يكون لي غلام وقد بلغني الكبر وامرأتي عاقر قال كذلك الله يفعل ما يشاء**﴾ [آل عمران: ٤٠]. وتكررت الآية مرة أخرى في سورة مريم قال عزّ من قائل: ﴿**قال ربِّ أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتياً**﴾ [مريم: ٨].

وكلا الآيتين جاءتا في سياق دعائي على لسان زكريا «ع» طالباً من الله تعالى أن يرزقه الولي الصالح، كما يظهر من سياق الآيتين، إلا أن ما يلحظ من اختلاف بينهما أن الآية الأولى جاءت عقب رؤية زكريا «ع» نعم الله تعالى وقدرته في رزق مريم، فحرك ذلك زكريا فدعا الله تعالى بطلبه[٢]؛ في حين أن الآية الثانية جاءت في سياق الحديث عن حال زكريا «ع» التي بدأت به سورة مريم.

والذي أريد أن أخلص إليه من ذلك أن ذكر زكريا في آل عمران جاء أثناء الحديث عن مريم «ع»، فأنت ترى الآيات التي تسبق الآية وما بعدها تكمل الحديث عن مريم «ع»، وجاء ذكر زكريا«ع» جانباً من استكمال الحديث عن مريم «ع»[٣]. أما في سورة مريم فإنها قد تبنت من بدئها الحديث عن زكريا «ع» ولعل البدء في هذه السورة بذكره يشعرنا باهتمام القرآن بعرض افتقاره إلى الله تعالى وشكواه من كبر سنه، وافتقاده الولي الصالح.

أرجع للاختلاف بين الآيتين وأقول: لا بدَّ أن القارىء لهما يكشف أن زكريا «ع» قدَّم ذكر كبره في الآية الأولى وأخّر ما كان من أمر زوجه، في حين أنه في الآية الثانية عكس الأمر وقدم حال زوجه وأخر ذكر كبره، والسبب في ذلك والله أعلم أنه في سورة مريم قدّم كبره قبل ذكر عُقر زوجه، وذلك بأن أبان ضعفه ووهن عظامه، وهذا أظهر دليل على تقدم سنه وكبره، ثم أعقب عليها بذكر حال زوجه، فهو بذلك أشار إلى كبره بالتلميح لا بالتصريح. قال تعالى: ﴿**قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً، ولم أكن بدعائك ربِّ شقياً * وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقراً فهب لي من لدنك ولياً**﴾ [مريم: ٤، ٥].

---

(١) الكشاف: ٣/ ٦٣، ظ: مفاتيح الغيب ٢٣/ ٤٦.

(٢) ظ: الآيتين: ٣٧، ٣٨ / آل عمران.

(٣) ظ: الآيات: ٣٥ ـ ٤٥ / آل عمران.

ولم يكتفِ السياق بذلك فأعاد ذكر حاله مؤخراً عن ذكر زوجه، وذلك لتنويع الكلام والتفنن في إيراده من جهة، وموافقته للإيقاع الموسيقي للفواصل التي سبقت وتلت فاصلة هذه الآية وهي «رضيا، سميا، شيئاً، سويا، عشيا» وغيرها[١].

ولعل جانباً آخر يحدد بعضاً من دلالات هذا التباين بين الآيتين، وهو أننا نجد في سورة مريم عرضاً وافياً لحال زكريا وعلى لسانه بأسلوب الدعاء، ولما كان أهم مزايا أسلوب الدعاء، إظهار الفقر والحاجة لله تعالى، جاء ذكر زكريا «ع» لحاله مرة مقدماً على زوجه وأخرى حال زوجه مقدماً عليه، وهكذا يظهر شكواه وحاجته وخضوعه وتضرعه بحاليهما الاثنين رغبة في إجابته، وهو ما بُشر به فعلاً والله أعلم بالصواب.

ومن لطائف الاختلاف بين الآيتين أنه قال في آل عمران: ﴿وقد بلغني الكبر﴾ أما في مريم ﴿وقد بلغت من الكبر عتياً﴾ فمرة بلغه الكبر، وأخرى هو يبلغ الكبر، وعليه فقد جعل (الكبر بمنزلة الطالب فهو يأتيه بحدوثه فيه، والإنسان أيضاً، يأتي الكبر بمرور السنين عليه)[٢]، إلا أن تأخير المعنى الثاني بأن بلغ زكريا الكبر أكثر دلالة على حاله إذ بلغ أعلى درجاته وهو (عتياً) وهذا أنسب لحال الإنسان الداعي استدراراً للإجابة[٣] والله أعلم.

ومن الآيات الأخرى التي نلمح فيها طريقة من طرائق التكرار، قوله تعالى: ﴿**لله ما في السموات وما في الأرض وإن تبدوا ما في أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ [البقرة: ٢٨٤]. وأعيدت الآية بسياق ثانٍ في المائدة. قال تعالى: ﴿**ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء والله على كل شيء قدير**﴾ [المائدة: ٤٠].

فتلاحظ أن الآية الأولى قدمت الغفران على العذاب بينما جاء العذاب، مقدماً على الغفران في الآية الثانية، والسياق يكشف عن سبب التكرار المختلف بالتقديم والتأخير، فآية المائدة تلت آية حكم «السارق والسارقة وعذابهما يقع في الدنيا، فقدم لفظ العذاب، وفي غيرها قدم لفظ المغفرة رحمة منه تعالى، وترغيباً للعباد في المسارعة إلى موجبات المغفرة»[٤] إذاً التقديم والتأخير في التكرار جاء لمقابلة بين كل

---

(١) ظ: أسرار التكرار في القرآن: ٤٧.

(٢) مجمع البيان: ٢/ ٧٤.

(٣) ظ: أسلوب الدعاء في القرآن الكريم: ٦٨.

(٤) أسرار التكرار في القرآن: ٤٦، ظ الكشاف ١/ ٦٣٢، مفاتيح الغيب ١١/ ٢٣٠، تفسير أبي السعود=

آيةٍ وسياقها.

ومن لطائف التكرار قوله تعالى: ﴿ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله وكلٌ آتوه داخرين﴾ [النمل: ٨٧]. وتكررت الآية بطريقة مختلفة في قوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نُفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون﴾ [الزمر: ٦٨].

فعبر في الآيتين عن ثلاث نفخات اختصت الأولى بالفزع، والثانية بالصعق أي الموت، والثانية نفخة القيام وهي متوالية، ومسلسلة إحداها بعد الأخرى كما تأتي يوم القيامة[١]، وكل نفخة مرتبة على الأخرى «فإن الصعقة من الفزع وقد رتبت على النفخة الأولى»[٢] والنفخة الثالثة نفخة القيام بعد الموت[٣]. واختار الكرماني وجهاً آخر من أسرار تكرار الآية أن سورة النمل «خصت... بقوله (ففزع) موافقة لقوله: ﴿... وهم من فزعٍ يومئذٍ آمنون﴾ [النمل: ٨٩] وخصت بقوله (فصعق) موافقه لقوله: ﴿وإنهم ميتون﴾ [الزمر: ٣٠. لأن معناه (صعق) مات»[٤].

وسياق الآيات يساعد على قبول هذا المعنى، لكننا نميل إلى أن الاختلاف في التعبير بين الآيتين جاء نظراً لتوالي النفخات كما هي في الواقع واحدة بعد الأخرى؛ فضلاً عن ترتب كل واحدة منها على الأخرى والله أعلم بالصواب.

ومن بين المظاهر الأخرى للتكرار في القرآن العظيم التكرار بالسورة الواحدة، وهو أجلى المظاهر وأوضحها. إذ تكرر الآية الواحدة كما هي دون أي اختلاف بمرات عديدة، حتى إن ذلك يوقظ في النفس التساؤل في الغاية منها وعلة تكرارها. وأول ما يشار إليه في هذا المجال سورة الرحمن، وقد تكررت فيها آية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ إحدى وثلاثين مرة.

وتكرار الآية يوافق طبيعة هذه السورة الكريمة، إذ أنه تعالى «عدد فيها نعماءه،

= ١/ ٢٧٣.

(١) يعطي الراغب الأصفهاني لمادة صعق عدة معانٍ من بينها الموت. ظ معجم مفدرات غريب القرآن: مادة صعق، واتفق المفسرون على أن صعق في هذه الآية بمعنى مات: ظ تفسير البيان ٩/ ٤٦، مجمع البيان ٧/ ٥٠٧، مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٢.

(٢) يقول الزمخشري: قيل ففزع دون فيفزع لنكتة وهي الإشعار بتحقق الفزع وثبوته، وأنه كائن لا محالة» ظ الكشاف ٣/ ٣٨٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن: ١٥/ ٤٠٠.

(٤) ذهب بعض المفسرين إلى أنها ثلاث نفخات الأولى: نفخة الفزع، والثانية: نفخة الصعق، والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين. ظ مجمع البيان ٧/ ٢٣٦، مفاتيح الغيب ٢٧/ ١٨.

وأذكر عباده آلاءه، ونبههم على قدرها، وقدرته عليها، ولطفه فيها، وجعلها فاصلة بين كل نعمة ليعرف موضع ما أسداه إليهم منها»[١].

ومعنى ذلك أنه عقب بعد كل نعمة من نعمه تعالى بإعادة الآية ﴿فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾ قصداً إلى «التقرير بالنعم المعدودة، والتأكيد في التذكير بها كلها، فكلما ذكر سبحانه نعمة أنعم بها، قرر عليها، ووبخ على التكذيب بها»[٢].

فالتقرير والتأكيد أول لطائف التكرار في السورة، فضلاً عن ذلك فأنت تلحظ أن الآية المكررة جاءت ثماني مرات عقب تعداد عظائم خلقه، ودقائق صنعه. وسبع مرات في الحديث عن جهنم وما فيها، وثماني مرات أخرى في ذكر الجنة، وثمانٍ أخرى لذكر الجنة التي هي دون الأولى، فهذه إحدى وثلاثين مرة[٣]، وعلى ذلك فقد التفت الكرماني إلى أن تكرار الآية أثناء الحديث عن النار وما فيها جاء مناسباً لعدد أبوابها وهي سبعة أبواب، كما تناسب عدد أبواب الجنة وتكرار الآية عقبها ثماني مرات[٤].

ومن جانب آخر فإننا نجد في تكرار الآية بهذه الكثرة إيقاعاً موسيقياً منتظماً من خلال تكرار الآية نفسها من جهة، وموافقة فاصلتها لفواصل سورة الرحمن والتي انتهت فواصلها بالنون ـ في الغالب ـ والميم، وهي من الفواصل المتقاربة ـ والله أعلم بالصواب ـ.

ومن التكرار في السورة الواحدة ما جاء في سورة المرسلات من تكرار قوله تعالى: ﴿ويل يومئذٍ للمكذبين﴾ حيث كررت الآية عشر مرات[٥] والتكرار في هذه السورة جاء بعد أن ذكر الله تعالى أخباراً عن علامات يوم القيامة وحساب المجرمين، وخلقه الإنسان من ماء مهين، وإبداعه في خلق الأرض، وضمها للإنسان حياً وميتاً. ورجع للحديث عن يوم القيامة، وما فيها من أمر جهنم. وحال الكافرين فيها مبهوتين لا يؤذن لهم بالكلام فيعتذرون، وتحدى المجرمين، وذكر عاقبة المتقين وحالهم

---

(١) أسرار التكرار في القرآن: ١٥٨.

(٢) الصناعتين: ١٩٤.

(٣) مجمع البيان: ٩/ ١٩٩، ظ أمالي المرتضى: ١/ ١٢٣.

(٤) الآيات الثمانية الأولى من ١ ـ ٣٠، والسبعة من ٣١ ـ ٤٥، والثمانية في ذكر الجنة من ٤٦ ـ ٦١، والثمانية الثانية في الجنة التي دون الأولى من ٦٢ ـ ٧٨.

(٥) ظ: أسرار التكرار في القرآن: ١٩٨، مفاتيح الغيب ٢٩/ ٩٦ ـ ٩٧، البرهان في علوم القرآن: ٣/ ١٩.

بالجنة، وجزاءهم بالآخرة جزاء المحسنين، وعاد للحديث عن المجرمين وكيف يعصون أوامره تعالى، وهو بعد كل وصف وإخبار في هذه السورة يورد الآية متوعداً المكذبين «لأن كل واحدة منها ذكرت عقيب آية غير الأولى، فلا يكون التكرار مستهجناً، ولو لم يكن يكرر فإنه كان يتوعد في بعض دون بعض»[١] فيُظن أنه توعدهم في تكذيب أخبار معينة دون غيرها جاءت في نفس السور؛ لذا أجرى التوعد بالتكذيب لكل ما ذكر من أخبار وأوصاف في السورة كلها، وليس على بعض منها من دون بعض.

بمعنى آخر أن المكذِّب «يلزمه الويل بالتكذيب بالذي يليه والذي قبله على التفصيل لا على الإجمال في أنه لا يلزمه حتى يكذب بالجميع»[٢] وبهذا يتضح الترابط المعنوي بين الأخبار الواردة في هذه السورة، فمن كذب ببعضها استحق الويل كمن كذب بجملتها، وهذا المعنى أوضحه التكرار للآية والله أعلم بالصواب.

فضلاً عن ذلك فلا بدَّ من الإشارة إلى ذلك التناغم الذي يحدثه تكرار الآية في السورة مما يؤدي إلى حالة توقظ المشاعر بالخوف، وتستفز النفس بالرهبة، لأنها توحي بالوعيد الأكيد والقادم في ذلك اليوم لا محالة والله أعلم بالصواب، ولنا أن نتصور جواً كهذا فيه ذكر لعلامات يوم القيامة وأحوالها يناسبه التكرار مناسبة تامة، «لأن بسط الكلام في الترغيب والترهيب أدعى إلى إدراك البغية من الإيجاز»[٣].

وهذا واضح في هذه السورة وسورة الرحمن قبلها، لأن إعادة القول وتكريره يدعو إلى تقرير الأمر وتثبيته في النفس، فضلاً عن إظهاره وبيانه بأتم وأبلغ صوره والله أعلم.

ومن التكرار في السورة الواحدة كذلك قوله تعالى في سورة الكافرون: ﴿**قل يا أيها الكافرون * لا أعبد ما تعبدون * ولا أنتم عابدون ما أعبد * ولا أنا عابد ما عبدتم * ولا أنتم عابدون ما أعبد * لكم دينكم ولي دين**﴾ [الكافرون: ١ ـ ٦].

فإنك تجد أنه (ﷺ) كرر نفي عبادته لآلهتهم، ونفى عنهم، كذلك أن يعبدوا الله تعالى في أربع آيات.

ومن بين دلالات التكرار ههنا أنه أفاد التوكيد[٤] بأبلغ طريقة، إذ ناسب بين الآية

(١) ظ الآيات [١٥، ١٩، ٢٤، ٢٨، ٣٤، ٣٧، ٤٠، ٤٥، ٤٧، ٤٩/ المرسلات].
(٢) أسرار التكرار في القرآن: ٢١٣.
(٣) تفسير البيان: ١٠/ ٢٣٦.
(٤) أسرار التكرار في القرآن: ٢١٣.

الثانية والآية الرابعة، من جهة، وبين الآية الثالثة، والآية الخامسة من جهة أخرى، وفي هذا تحقير واستهجان للكفار الذين سألوا الرسول (ﷺ) أن يتناوبا في عبادة الله مدة، وعبادة آلهتهم مدة أخرى، وبين بتهكم واضح أن ذلك لا يصدر إلا من نفوس استقر بها الشرك، وملك عنانها الإصرار عليه، ويكفي أن الصورة بدأت بوصفهم بالكفر.

نستنتج من ذلك أن هناك ملاءمة بين طبيعة السياق في الآية وبين أسباب نزولها[١]. والله أعلم بالصواب.

ثم إننا نلحظ فرقاً بين الآية الثانية وتوكيده في الآية الرابعة. فالأولى نفت الفعل المضارع أعبد، بينما الثانية نفت اسم الفاعل [عابد]، وفي كلا النفيين دلالة حية متجددة. يقول أبو حيان الأندلسي:

«إنه (ﷺ) أولاً نفى عبادته في المستقبل لأن (لا) الغالب فيها أنها تنفي المستقبل، قيل ثم عطف عليه ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ نفياً للمستقبل على سبيل المقابلة، ثم قال ﴿ولا أنا عابد ما عبدتم﴾ نفياً للحال لأن اسم الفاعل العامل، الحقيقة فيه دلالته على الحال ثم عطف عليه ﴿ولا أنتم عابدون ما أعبد﴾ نفياً للحال على سبيل المقابلة فانتظم المعنى. إنه (ﷺ) لا يعبد ما يعبدون لا حالاً ولا مستقبلاً»[٢] فهو (ﷺ) قد استبعد عبادتهم لله تعالى في الحال والمستقبل، ويمكن القول: إنه شمل النفي للماضي أيضاً و«لكنه حُذف لدلالة الأولين عليه»[٣].

ثم إنك ترى أنه (ﷺ) نفى عبادته مرة بالجملة الفعلية (لا أعبد) ومرة بالجملة الاسمية (ولا أنا) وهو في ذلك قد نفى الفعل مع دلالته في التجدد والحدوث، فضلاً عن نفيه للاسم مرتبطاً بمزيته في الثبات والدوام، بمعنى آخر، إن نفيه (ﷺ) للفعل يتجدد مع تجدد دلالة الفعل، في عدم عبادته غير الله تعالى، كما أن نفيه (ﷺ) للاسم ثابت بثبوت الاسم ودوامه على عدم عبادته لغير الله تعالى. يقول الزركشي: «فالجملة الفعلية نفي لإمكانه، والأسمية نفي لاتصافه»[٤] ويجري هذا الاستعمال للجملة الاسمية والفعلية كثيراً في القرآن الكريم، فتراه يعبر بالفعل عن أمر يتجدد ويستمر، بينما يعبر

---

(١) ظ: أمالي المرتضى: ١/ ١٢١، مجمع البيان: ١٠/ ٥٥٢، تفسير أبي السعود ٩/ ٢٠٦، الميزان ٢٠/ ٣٧٤.

(٢) ظ: مفاتيح الغيب: ٣٢/ ١٤٥ ـ ١٤٦، البرهان في علوم القرآن ٣/ ٢١.

(٣) البحر المحيط: ٨/ ٥٢٢.

(٤) البرهان في علوم القرآن: ٣/ ٢١، ظ: أسرار التكرار في القرآن: ٢٢٦.

بالاسم عما هو ثابت ودائم، والله أعلم بالصواب.

ولا بدَّ من القول أخيراً: إن استعمال النفي وتكراره في هذه السورة القصيرة أربع مرات يقرر في النفس أسمى غايات هذا الدين وأول أصوله وهو «التوحيد»، وقد جسدت هذه السورة بأبلغ طريقة هذا المعنى. فضلاً عن ذلك فإنك تجد في استخدام (لا) للنفي، وما يعطيه صوت الألف فيها من المد إطلاقاً غير مقيد لنفي كل معبود غيره والله أعلم بالصواب.

وعليه فقد تلمسنا في هذا المظهر من التكرار أبعاداً دلالية تثمر عنها سياقاتها التي تجدد في النص سحره، وتثبت إعجازه.

ومن خلال ما سلف نخلص إلى أن القرآن الكريم جاء بمظاهر عديدة من التكرار؛ منها ما هو قائم على الاختلاف في الألفاظ بين الآيات، ومنها ما هو مؤسس على التباين في التعبير، مرة بالتقديم والتأخير، وأخرى بالحذف والإثبات، ومنها ما هو قائم على الاستعمال المختلف لأدوات الأساليب العربية، ومنها ما يجيء فيه إثبات حروف العطف مرة. وتركه مرة أخرى أو تغييره مرة ثالثة، ومنها ما يقوم على التكرار المتشابه للآية في السورة الواحدة بعد سياقات مختلفة. ويمكننا القول بعد ذلك: إن هذه المظاهر من التكرار لها أغراض وفوائد نلحظ بعضاً منها بإيجاز في النقاط التالية:

(أ) ـ إن تكرار الآية في سياقات مختلفة، ودلالات متجددة يعد أرقى ضروب البلاغة، وأثمر صور الجمال وقعاً في النفس الإنسانية، لأنها تلذ بحيوية الكلام المتكرر، وتبحث عن دلالاته، وعليه فالتعبير عن الكلام الواحد في صور شتى وأساليب مختلفة يعني القمة في البيان، ولا أبين من كتاب الله تعالى نزل في أمة ديدنها البلاغة.

(ب) ـ إن التكرار يؤكد المعاني ويقررها في القلوب، فإن ذكرك الأشياء مرة بعد أخرى يوشج علائقها، ويؤكد صلاتها.

(جـ) ـ إن التفنن بتكرار الآيات بتعابير مختلفة، أقرب ما يكون لتحبيبه عند متلقيه، وإثارة انتباههم، وإيقاظ نشاطهم، فيتواصلون معه ويتلذذون به. في حين تراه من جانب آخر [في غير القرآن والحديث] أبعد ما يكون، لاستيلاء الملل والضجر على النفس، فإن الكلام المكرر بعفوية يرتقي بدلالات النص، بينما إذا تكلف تكرار الكلام خلق وبلي، وعزفت النفس عن متابعته.

نتائج البحث

نستطيع أن نوجز بعض النتائج التي كشفت هذه الدراسة عنها:

(أ) ـ إن ظاهرة التكرار في القرآن الكريم واسعة المعالم، متعددة الطرائق في التعبير عن المعاني المختلفة، ولذا فليس من اليسير الإحاطة بها بشكل متكامل.

(ب) ـ إن الآيات المتكررة ضمنت في نصها الكثير من مظاهر التكرار، وقد أشرنا إلى أن آية واحدة، قد تحمل العديد من مظاهر التكرار.

(جـ) ـ إن أسرار التكرار ولطائفه لا تظهر للباحث إلا من خلال متابعته لسياقات الآيات المتكررة حسب ورودها في السور المختلفة.

(د) ـ مثل التكرار وجهاً من وجوه الإعجاز الفني في القرآن الكريم، بل لا أبالغ إن قلت: إنه أول الوجوه وأكثرها دلالة من غيره...

الباحث

قائمة المصادر

ـ القرآن الكريم.

ـ أسرار التكرار في القرآن: تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني (٥٠٠هـ)، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار بوسلامة ـ تونس ١٩٨٣.

ـ أسرار التكرار في لغة القرآن: د. محمود السيد شيخون، ط١، مط القاهرة الحديثة ـ القاهرة، ١٩٨٣.

ـ أسلوب الدعاء في القرآن الكريم: محمد محمود، رسالة ماجستير، ١٩٩٧.

ـ إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (المشهور بتفسير أبي السعود): أبو السعود محمد بن محمد العمادي، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان (د.ت).

ـ أساس البلاغة: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتب الحديثة، القاهرة (د.ت).

ـ أمالي المرتضى (غرر الفوائد ودرر القلائد): الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ١٩٦٧.

ـ البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية، البابي الحلبي، مصر، ١٩٥٧م.

ـ تاج العروس، محمد مرتضى الزبيدي، دار ليبيا للنشر، بنغازي (د.ت).

ـ التبيان في تفسير القرآن، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي، مط العلمية، النجف الأشرف، ١٩٥٧.

ـ التعبير القرآني، د. فاضل السامرائي، دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٨٩.

ـ تفسير البحر المحيط، محمد بن يوسف المشهور بأبي حيان الأندلسي، ط٢، دار الفكر، ١٩٧٨.

ـ الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، ط٢، دار إحياء التراث العربي، بيروت (د.ت).

ـ الصناعتين: أبو هلال العسكري، تحقيق: محمد علي البجاوي، محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية في القاهرة ١٩٥٢.

ـ العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، مط السعادة ١٩٥٥.

ـ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل. جار الله محمود بن عمر الزمخشري، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان (د.ت).

ـ لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار صادر، بيروت (د.ت).

ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين بن الأثير، حققه د. أحمد الحوفي، بدوي طبانه، ط٢، منشورات دار الرفاعي، الرياض، ١٩٨٣.

ـ مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان (د.ت). فضلاً عن ط شركة المعارف الإسلامية، ١٣٧٩.

ـ معجم مفردات ألفاظ القرآن: الراغب الأصفهاني، تحقيق: نديم مرعشلي، مط التقدم العربي، ١٩٧٢.

ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي ط٢، دار الحديث، القاهرة، ١٩٨٨م.

ـ مفاتيح الغيب (التفسير الكبير) الفخر الرازي، مط البهية، مصر (د.ت).

ـ الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي، ط٣، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ١٩٧٣.